مكانة القيم الإسلامية لدى الصوفية في افريقيا
التسامح انموذجاً

مجلة دراسات افريقية

Journal Homepage: http://studies.africansc.iq/
ISSN: 2518- 9271 (Print) ISSN: 2518- 9360 (Online)

مكانة القيم الإسلامية لدى الصوفية في افريقيا
التسامح انموذجاً

أ.د.بشار اكرم جميل
جامعة الموصل/ كلية الاداب

تاريخ الاستلام:
٢٥/ ١٠/ ٢٠٢٣
تاريخ القبول:
٣٠/ ١٠/ ٢٠٢٣
تاريخ النشر:
١/ ١٢/ ٢٠٢٣

الكلمات المفتاحية:
التصوف، التسامح، افريقيا، الإسلام

المجلد الثاني العدد (١٣)
جمادى الأولى - ١٤٤٥هـ
كانون الأول ٢٠٢٣م

ملخص البحث:

حظي التسامح بمكانة كبيرة في نفوس المسلمين ولاسيما بعد أن اكدت ايات القرآن الكريم على ذلك المبدأ ثم جاءت السنة النبوية الشريفة لتثبت ذلك وتعمل على تطبيقه في ارجاء الدولة العربية الاسلامية ، وتلك المكانة الكبيرة للتسامح جاءت نتيجة لما حققه التسامح من نتائج ايجابية في المجتمع الاسلامي ، والذي كان بأمس الحاجة له بعد ان كان المجتمع قبل إسلامه يقبع تحت مبادئ وثنية تقوم على العصبية والقسوة والكره وعدم التسامح ، والهدف الذي ينوي البحث تحقيقه يقوم على تأكيد مكانة قيمة التسامح والتي تبنتها الصوفية بشكل واقعي وعملي ، لقد تناول البحث مكانة قيمة التسامح في القرآن الكريم والسنة الشريفة ومن ثم مفهوم التسامح لدى الصوفية وماعنته تلك القيمة بالنسبة لهم ، فضلاً عن نتائج تلك القيمة على المجتمع ومدى نجاح تطبيقها .

ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث القناعة أن التمسك بقيمة التسامح والذي تبنته الصوفية ودافعت عنه أسهم في تكاتف المجتمع وتماسكه ، فكانت صفة العفو المطلق هي المحرك الأساس للمجتمع المتصوف ، فلابد لمجتمعاتنا المعاصرة ان تتبع اسلوب يدعو الى التسامح في كافة نواحي الحياة .

The status of Islamic values in Sufism in African Tolerance is a model

Prof. Bashar Akram Jamil

Mosul University/College of Arts

Received:
25/10/2023

Accepted:
30/10/2023

Published:
1/12/2023

Keywords:
Sufism ; tolerance; Africa ; Islam

Journal of African Studies
volume (2)
Issue (13)
Jumada al-Awwal 1445 H

Absrract

Tolerance enjoyed a great place in the hearts of Muslims, especially after the verses of the Noble Qur'an emphasized that principle, and then the honorable Sunnah of the Prophet came to prove this and work to implement it throughout the Arab Islamic state. It was in dire need after the society before Islam was under pagan principles based on fanaticism, cruelty, hatred and intolerance, and the goal that the research intends to achieve is based on confirming the status of the value of tolerance, which the Sufis adopted in a realistic and practical way. The honorable and then the concept of tolerance among the Sufis and what that value means for them, as well as the consequences of that value on society and the extent of the success of its application.

One of the most important findings of the research is the conviction that adhering to the value of tolerance, which the Sufis adopted and defended, contributed to the solidarity and cohesion of the society.

مقدمة:

تأتي أهمية هكذا موضوع لاسيما في ظل الأوضاع التي يعيشها المسلمون في العالم اليوم لتؤكد على التسامح فيما بيننا لنتمكن من حل المشاكل التي تواجهنا متخذين من سيرة من سبقنا من الصالحين والمتصوفة الأوائل منهجاً لنا نسير وفقه، لذلك كان لابد من دراسة المشاكل والصعوبات التي تواجهنا في عصرنا هذا وإيجاد الحلول لها من تاريخنا وحضارتنا ومن خلال قيم التصوف الخالدة لاسيما قيمة ومبدأ التسامح . وحينما نريد أن نضرب الأمثلة على مبدأ التسامح لدى الصوفية فأننا سنحتاج لمساحة كبيرة لكننا سنعمل هنا على بيان الدروس التي نستطيع الإفادة منها اليوم لاسيما ونحن بأمس الحاجة لها في كل مفاصل حياتنا، فالطلبة في المدارس والجامعات بحاجة إلى التمسك بمبدأ التسامح فيما بينهم واخذ العبرة من أولئك الرجال الأوائل الذين جعلوا من هذا المبدأ قاعدة من قواعد حياتهم، كما أن الأمر نفسه ينطبق على التعامل بين الناس في الأماكن العامة وفي كل مفاصل الحياة فالعودة إلى التسامح وحل المشاكل بالتراضي يجعل من المجتمع متماسك وناجح .

إن الأهداف التي ينوي البحث تحقيقها تتمثل في بيان أهمية التسامح في حياة الإنسان وبالتالي في توجيه وتقويم المجتمع، ومن خلال ذلك بيان دور التصوف في ازدهار وتطوير مبدأ التسامح ولاسيما في افريقيا جنوب الصحراء، وبالتالي الخلاص إلى عرض بعض المشاكل التي تواجهنا والحلول التي يمكن للتسامح أن يقدمها لحل تلك المشاكل، وقد اعتمد البحث على منهج البحث التاريخي القائم على تحليل الوقائع بعد عرضها، أما نطاق البحث المكاني فهي البلاد الإسلامية .

أولاً: التسامح في القرآن الكريم والسنة النبوية

التسامح مبدأ إسلامي كبير ومهم قال عنه الله تعالى: « الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين»[1]..وقال تعالى:

(١) سورة آل عمران، أية (١٤٣) .

« ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور»[١]، وجاء الدين الإسلامي ليعزز من دور الفضيلة التي أمرت بها الأديان السابقة وعمل على إحيائها وتفعيلها من خلال زرعها في قلوب الناس لتنعكس إيجاباً من خلال تعامل الناس ببعضهم البعض لينتج عن ذلك مجتمع فاضل، ولأن التسامح بين أفراد المجتمع من ضروريات انسجام ذلك المجتمع وتعايشه فكان لابد أن يكون التسامح إحدى ثمار ذلك المجتمع، وفي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ما يؤكد على أن التسامح من الركائز الأساسية التي يستند إليها المجتمع المسلم في معاملاته سواء بين أفراده أو بينه وبين المجتمعات الأخرى، ففي القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على إحياء وتفعيل فضيلة التسامح كقوله تعالى وهو يصف نصيحة لقمان الحكيم لأبنه: «يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»[٢]، وقوله تعالى «وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»[٣] .

وفي السنة النبوية الشريفة الكثير من الأحاديث التي دعت المسلمين للتسامح والعفو منها قوله ﷺ «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٤]، وقوله ﷺ «إن الله عز وجل يُحب العفو وقرأ قول الله تعالى (وليعفوا وليصفحوا»[٥]، كما قال صلى الله عليه وسلم (رحم الله امرأ سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا قضى سمحاً إذا اقتضى)[٦]،

---

(١) سورة الشورى، أية (٤٣) .

(٢) سورة لقمان، أية (١٧) .

(٣) سورة الشورى، أية (٤٣) .

(٤) أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني أبو بكر البيهقي، السنن الكبرى، ج١٠، (بيروت، ٢٠٠٣م)، ص٣٢٣ ؛ أبو القاسم تمام بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله الدمشقي، الفوائد، ج١، (الرياض: بلا دار نشر، ١٤١٢هـ)، ص١٢١ .

(٥) أبو بكر عبد الرزاق بن هُمام بن نافع الحميري، المُصنف، ج٧، (بيروت: المكتب الاسلامي ،١٤٠٣هـ)، ص٣٧٠ .

(٦) محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، الجامع المُسند، ج٣، (بيروت: دار طوق النجاة،

فضلاً عن ذلك فقد رسخ الرسول محمد ﷺ في عقول أصحابه مفهوم التسامح والأخوة وعدم الاعتداء لأن جميع الناس متساوون أمام الله ولا فرق بينهم قائلاً: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ قَالُوا بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قَالُوا يَوْمٌ حَرَامٌ ثُمَّ قَالَ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا قَالُوا شَهْرٌ حَرَامٌ قَالَ ثُمَّ قَالَ أَيُّ بَلَدٍ هَذَا قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ قَالَ فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ قَالَ وَلَا أَدْرِي قَالَ أَوْ أَعْرَاضَكُمْ أَمْ لَا كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَلَّغْتُ قَالُوا بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»[١].

وليس اعتباطاً أن يفخر المُسلم بأن دينه من أكثر الأديان تسامحاً وذلك لأنه جاء ليعزز من القيم والأخلاق التي جاءت بها الأديان السابقة بل ويزيد عليها ويأمر بتفعيلها لتتحقق قيم المحبة والتعايش بين بني البشر[٢].

وقد أسهم التسامح بشكل واضح في نجاح الدعوة الإسلامية وانتشارها منذ بدايتها على عهد الرسول الكريم محمد ﷺ، وربما يكون موقفه عليه الصلاة والسلام من مشركي مكة يوم الفتح دليلاً على عظم التسامح حتى مع الذين قاموا بإيذائه من خلال قوله لهم (أذهبوا فأنتم الطلقاء)[٣] وهو رد ربما نفتقده بشكل كامل في يومنا هذا ونحن بأمس الحاجة له لنستطيع أن نوحد كلمتنا.

وفي الإسلام فأن التسامح مبدأ مهم من مبادئ التعايش، وأن الإنسان مستخلف على الأرض وقد كرمه الله تعالى بأربع كرامات هي كرامة الإنسانية وكرامة الاستخلاف والتي وردت في عدة سور، وكرامة الإيمان، وقد التقت المسيحية مع الإسلام في مبدأ

١٤٢٢هـ)، ص٥٧.

(١) احمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، ج٣٨ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩)، ص٤٧٤.

(٢) محماس بن عبد الله بن محمد الجلعود، الموالاة والمعاداة في الشريعة الاسلامية، ج٢، (بيروت: دار اليقين للنشر والتوزيع، ١٩٨٧)، ص٥٩٤.

(٣) البيهقي، السنن الكبرى، ج٩، ص١٩٩.

تكريم الإنسان واعتباره قيمة ذاتية، كائناً حراً، ودعوتهما إلى إنماء الأرض إنماءً مشتركاً، وأن تكون مسلماً حقاً ومسيحياً حقا يعني أن تذهب في إيمانك إلى مقاصده العليا إلى الإعلاء من قدر الإنسان، ورفض أي استغلال أو إقلال من كرامته ككائن مخلوق، وهنا لابد من التساؤل كيف نحمي التعايش والتسامح في عالمنا اليوم ؟ والإجابة تكمن في إشاعة ثقافة دينية مؤسسة على قيم التسامح، وإبعاد السياسة عن الدين ومنع توظيفه في صراعات سياسية، ونحميه بتثقيف ديني مُتبادل يعمل على تجريد الدين من ثقل التاريخ والتصورات النمطية المشوهة في المخيلة الشعبية، ونحمي التسامح والتعايش من خلال الإيمان بالله الواحد الأحد وبالأرض الواحدة التي هيأ الله الإنسان ليعيش عليها، وبالمعاد الواحد[١] .

ثانياً: مفهوم التسامح لدى الصوفية في افريقيا ونتائجه

أ- مفهوم التسامح

يأتي التصوف في زمننا الحاضر كإجابة لصراع الروح مع الجسد في ظل هيمنة المادة التي يطاردنا شبحها أينما ذهبنا وحيثما توجهنا، فهذه ثقافة الاستهلاك تطغى على جميع جوانب الحياة بما يترتب عنها من إفراط في الروح وظهور سلوكيات حيوانية تنزل بنا إلى أسفل السافلين بعدما كنا في أحسن تقويم وعلى هذا الأساس حقيقي بأرباب السلطة العمل على نشر المفاهيم والمبادئ الصوفية وتوصيلها إلى كافة المجتمع، لا يعني هذا الكلام حمل الناس على ممارسة التصوف فهذا أمر يؤتى من قبل الناس ولا يُفرض عليهم وإنما القصد فقط العمل على بث ونشر النواحي المظهرية والفضائل الأخلاقية، فالتصوف يأتي كإجابة عن تساؤلات وجودية ومآزق نفسية خطيرة تهدد شبابنا الذي لم يعد يقتنع بالإجابات الفقهية التي تعود إلى القرون الوسطى، لا يعني هذا أن نقلل من أهمية الفقهاء فهم أحسنوا الإجابة على معاصريهم لكنهم لا يستطيعون الإجابة على أسئلة معاصرة .

---

(١) رؤوف شلبي، الدعوة الإسلامية في عهدها المكي مناهجها وغاياتها، (دمشق: دار القلم)، ص٥٣٥ .

المشكلة الأخرى التي تواجهنا اليوم هي عدم قدرة الداعية أو المُعلم أو الموجه بشكل عام على التكيف مع عصره لكي يقدر على إيصال ما لديه من نصح وإرشاد، فترى الفقيه يتحدث عن الأمور الفقهية مع الجميع أطفال وبالغين لا يفرق بينهما ولا يسعى لإيجاد وسيلة يخاطب بها كُل حسب فهمه وإدراكه، كما تراه منغلقاً على نفسه يرتدي ملابس العلماء ليل نهار للحد الذي يعتاد عليه الناس ولا يجدون في شكله تغييراً، وقس على ذلك المُعلم في المدرسة لا يستطيع التكيف مع طلبته مقتنعاً أن أسلوب الشدة وعدم التهاون والتسامح مع الطلبة هو الذي سيكسبه الهيبة، وما على أولئك الناس إلا العودة بذاكرتهم إلى الأساليب الناجحة التي اتبعها رجال الصوفية في ذلك الأمر فالصوفي لديه القدرة على التكيف وتجده يلبس العباءة لأداء الطقوس الصوفية في الزاوية وعندما ينتهي يضع العباءة في حقيبته والعديد من المشايخ والدراويش لهم مواقعهم ومناصبهم الحكومية والعلمية ولكنهم احتراما لتقاليد أجدادهم يحملون عباءتهم كما يحدث في زوايا تركيا، وهذه إشارة ظاهرية على مقدرتهم على استبطان فلسفتهم وطقوسهم وشعائرهم وعدم تبشيرهم فالصوفية لا يبشرون بطرقهم بمعرفتهم ولكنهم يستقبلون الوافدين إليهم في زمن كان فيه العالم يستيقظ من غفلته، وكانت الأفكار الصوفية تأخذ جانبا من الوعي في المجتمعات باعتبار أنه كانت هنالك مدارس تلقّن الصوفية، كما أن كليهما يدعوان إلى التصوف الإيماني والأفكار الروحية، فعلينا أن نترقى من كل ما هو مادي وأن نؤمن بالتسامح والتواضع[١] . ولكي نتسامح فيما بيننا علينا أن نترك الأنانية، ولمقاومتها يجب أن لا نكون واثقين كليا بأنفسنا بمعنى أخر أن لا نجعل الغرور يهيمن علينا، ويجب أن نكون متواضعون أو أن نعي بأننا لسنا الوحيدين الموجودين في العالم بل نحن بحاجة لمساعدة غيرنا، نحتاج إلى الأخر كدعم وقوة . وإذا فكرنا بأننا قادرين على فعل أي شيء بمفردنا لن نستطيع مقاومتها يجب أن لا نفكر بأن الحقيقة هي ما نفكر به نحن لاغير .

---

(١) محمد بن احمد، « الحب الصوفي وانتروبولوجية التسامح دراسة ابستومولجية «، مجلة انتروبولوجيا الاديان، (السودان: الخرطوم، ١٩٨٥)، العدد التاسع، ص٢٤٢ .

كما أن تسامح الصوفية عبر المدارس الروحية وشيوخ الطريقة لعب دور كبير في حل مشاكل عديدة منها إيجاد حلول للمأزق السوداني وذلك بتقريب الآراء وإيجاد مخرج لما تعيشه المجموعات السودانية من تقاتل و حروب لا تعمل إلا على توسيع الهوة أكثر فأكثر ويضحى معها «السلم» هذا المشروع الإنساني مؤجلاً لوقت غير مسمى، ففي خضم ما يعيشه الواقع السوداني خاصة في جانبه السياسي من تعقيد نجد أن مساعي شيوخ التصوف والمدارس الصوفية المتواجدة بالمنطقة كالتيجانية[١] تحاول أن تلعب دوراً إنسانياً واجتماعياً من خلال إعادة إنتاج القيم الإنسانية التي أصبح يفتقدها المناخ السوداني من محبة وكرم و غيرها من القيم السامية والروحية وخلق مناخات تساعد على استتاب السلم والأمن الذي تنشده الجماعات السودانية والذهاب في نفس الاتجاه الذي ذهب إليه الجنوب السوداني من خلال إبرام اتفاقية السلام والتي وجدت المناخ المناسب لتجسيدها بحكم أن أهالي الجنوب السوداني أغلبيتهم يعتنقون الديانة المسيحية ورغم ذلك أدركوا أهمية وجود المشايخ في داخل المجتمع السوداني وأخذوا عنهم الآراء والقيم التي تساعد على تكريس المسعى الإنساني المنشود في السودان وهذا ما لم يتحقق في غرب وشرق السودان حيث تتواجد الفئات المسلمة إلا أن الأمور لا تزال معقدة ولاسيما في جانبها السياسي فيما يبقى الجانب الاجتماعي يتكفل به هؤلاء المشايخ الذين يحاولون من خلال سلوكياتهم وما يقدمونه من منفعة عامة للمجموعات السودانية لعب دور كبير في تكريس التكافل الاجتماعي[٢] .

فالمدارس الصوفية بأبعادها الروحية في السودان تبقى تحاول بقدر مستطاعها العمل على توفير المناخ الاجتماعي الذي تترعرع فيه القيم الإنسانية و محبة الإنسان التي

(١) التيجانية: وهي إحدى الطرق الصوفية التي انتشرت في أفريقيا وتُنسب إلى الشيخ أحمد بن محمد بن المختار التيجاني (١١٥٠-١٢٣٠هـ)، وقد عمت البلاد حالة من الانقسام في الرأي حول تلك الطريقة، فقد انتشر بين العامة أن من لم يعتنق تلك الطريقة فليس من الإسلام في شيء . يُنظر: عمر بن محمد بن محمد بن بكر فلاته، « ترجمة الشيخ عبد الرحمن الأفريقي «، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (السعودية: الجامعة الإسلامية، ١٣٩٨هـ)، العدد الأول، ص١٧٨ .

(٢) شهاب الدين السهروردي، عوارف المعارف (القاهرة: بلا دار نشر، د/ ت)، ص٢٨٥ .

تبقى نقطة جوهرية في المنظور الروحي التصوفي التي يبحث المتصوفة على ترسيخها في التعاملات الاجتماعية بين الطوائف السودانية للخروج من حالة الحرب والرعب والعنف التي تعيش في وسطها الجماعات السودانية، وهذا ما تقوم به المراكز الدينية التي تسمى هنالك في السودان (المسيد) من خلال الخدمات التي تقوم بها، وهذه التوجهات يمكنها أن تظيف الكثير على مستوى التعاملات الإنسانية والروحية بين الأفراد في ظل هيمنة الماديات على حساب القيم الروحية و الإنسانية كالعمل على منفعة البشر، محبة الإنسان، الكرم وغيرها من التعاليم التي ينادي بها المتصوفة[١] .

وكان مفهوم التسامح لدى الصوفية واسع ليشمل جميع الخلائق والديانات، قائلين بأن الديانات كلها حق وما اختلفت صور سلوك طريق الحق إلا لاختلاف استعدادات الأمم، فطريق نزول الحكم إلى الأنبياء واحد، وأن المُراد منه هو الهداية إلى طريق الحق، وطريق التوحيد واحد، وربما تكون للمدائح النبوية دور كبير في إبراز التسامح وتطبيقاته، فهم لا يمدحون الرسول محمد ﷺ وحده بل يمدحون جميع الأنبياء[٢] .

ومن هنا، فالتصوف عرفان وجداني وشوق ذوقي ومجاهدة ربانية تقوم على الزهد في الحياة وترك الدنيا الواهمة، ويعرف أبو محمد رويم البغدادي المتوفى سنة (٣٠٣هـ) التصوف بقوله: (التصوف مبني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار)، وقال الكرخي: (التصوف هو الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق)[٣]، وقال الجنيد: (أن تكون مع الله بلا

---

(١) المرابط بن عبد الرحمن، «التربية ومكانتها عند الصوفية»، منشور على موقع الطريقة العلية القادرية، https//:www.scribd.com/document2021/8/9 .8/

(٢) زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق (بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٣٧)، ص٢٣٧ .

(٣) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، الرسالة القشيرية، ج١ (القاهرة: دار المعارف، ١٢٨٧هـ)، ص١٤٩ .

علاقة)، وقال سمنون المحب المتوفى قبل سنة ٢٩٧هـ: (أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء)[١]، وقيل للحصري: (من الصوفي عندك...؟ فقال: الذي لاتقله الأرض ولا تظلله السماء)[٢]. ويبدو من خلال تلك الأقوال مدى تعلق قائليها بالله تعالى وحبهم للقائه ودعوتهم الناس لنبذ الدُنيا بما فيها وعدم التفكير في مغرياتها وهو الأمر سيقود صاحبه في النهاية إلى التسامح مع الآخرين ونبذ العنف والأنانية .

وفي العصور اللاحقة لعصر النبوة كان الالتزام بالتسامح بين شد وجذب حتى ظهر التصوف ليعود بمبادئه السامية والمتعددة ليؤكد عليه ويعمل بموجبه والذي أصبح قاعدة للتعامل بين المسلمين وبينهم وبين الآخرين، وفي التاريخ أمثلة كثيرة على صبر المتصوفة وتسامحهم حتى مع الذين قسوا عليهم، فضلاً عن صبرهم على الشدائد والأذى حباً في الأجر المرجو من الله تعالى جزاءاً لصبرهم[٣] .

وهناك من يشيد بالفكر الصوفي ويعتبره مسلكا للنجاة والخروج من أزمات الحياة المعاصرة، لأن مشكلاتنا مشكلات أخلاقية وأزمات روحية، كما أن الكثير من الطرق الصوفية قامت بدور هام في ميدان الجهاد وطرد المستعمر وحماية ثغور الوطن، وساهمت في خدمة المجتمع عن طريق الإنفاق والإحسان. زد على ذلك أن التصوف أصبح اليوم علاجا سيكولوجيا لأنه يحرر الإنسان من شرنقة أمراضه العضوية والنفسية ويخرجه من عزلته الاجتماعية ويداويه من القلق والكآبة والوحدة والاغتراب الذاتي والمكاني .

لقد كان لمبدأ التسامح مكانة كبيرة بين الطرق الصوفية كافة لاسيما الطريقة الشاذلية[٤]، إذ تمسك رجالات تلك الطريقة بالتسامح كمبدأ وقيمة من قيمهم العليا

(١) القشيري، المصدر نفسه، ج٢، ص٥٥٢ .

(٢) القشيري، الرسالة، ج٢، ص٤٤٣ .

(٣) محمد بن صالح بن محمد العثيمين، الشرح الممتع على زاد المستقنع، ج٥ (بيروت: بلا دار نشر، ١٤٢٨هـ)، ص٣٩٦ .

(٤) الطريقة الشاذلية في حزبها تقوم على أصول خمسة هي: تقوى الله في السر والعلانية، وإتباع السنة في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرضا عن الله تعالى في

للحد الذي حفز عدداً من شيوخ الطرق الأخرى للانضمام لتلك الطريقة حباً في التسامح والمحبة، ومن أشهر الذين أسهموا في نشر تعاليم الطريقة الشاذلية بالسودان مثلاً الشيخ (خوجلي بن عبد الرحمن)[١] الذي دخل الطريقة حباً في التسامح وإظهار النعمة[٢] .

ب- أثر التسامح في حل المشكلات

قد نكون في بلداننا العربية والإسلامية بحاجة ماسة للتسامح في هذه الأيام، فعلى كل من يريد أن يغير حال الأمة أن يصفح عن الآخرين ويسامحهم وان يتمثل بأفعال أولئك الرجال الأوائل الذين حملوا شعار التسامح وكانوا نواة للصوفية الحقيقية الصادقة، فمنهم من أكد على تنقية القلوب والعمل على تصفيتها من كل حقد وغل، فهذا (سري السقطي) يقول «القلوب ثلاثة، قلب مثل الجبل لا يزيله شيء، وقلب مثل النخلة أصلها ثابت والريح تميلها، وقلب كالريشة يميل مع الريح يميناً وشمالاً»[٣].

وحينما نُريد أن نناقش المشاكل والمعضلات في حياتنا اليوم نجد أن الانغلاق بوجه الآخرين هو الذي زاد من مشاكلنا، فكل منا يعتز بنفسه ويحاول أن يكون أفضل

القليل والكثير، والرجوع إلى الله في السراء والضراء، أما أركان الطريقة عندهم فهي أربعة: محبة وذكر وفكر وتسليم. وأهم هذه الأشياء هي المحبة الإلهية، لأنها قطب تدور عليه الدوائر، فمتى أحببته وذكرته، ومتى ذكرته فكرت فيه، وسلمت أمرك إليه . ينظر: عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني الدمشقي النابلسي، العقود اللؤلؤية في بيان طريق السادة المولوية (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٤)، ص٢٩ .

(١) هو الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن ويُعد من أبرز العلماء المتصوفة المنتمين للطريقة الشاذلية، أخذ علم الكلام والتصوف عن الفقير (أرباب) وتفقه في خليل عن الشيخ (الزين ولد صغيرون) توفي سنة ١١٥٥هـ . ينظر: محمد محجوب مالك، رواد الثقافة الإسلامية في جزيرة الفونج (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٤)، ص١١٣-١١٤ .

(٢) مالك، رواد الثقافة، ص١١٤ .

(٣) محمد بن صالح بن محمد أبو نعيم الاصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الاصفياء، ج١٠ (مصر :بلا دار نشر، ١٩٧٤م)، ص١٢٤ .

من الآخرين متصوراً أنهم أقل منه بكثير، فهو لا يتنازل لأحد أبداً مهما كان وهو أمر يدعو إلى الفرقة وتدهور المجتمع ككُل، وللتخلص من ذلك ما علينا سوى العودة إلى الدعوة الآلهية للتعايش والاختلاط بين البشر من خلال التمسك بالآية الكريمة «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »[١] لما فيها من معاني التسامح والتعايش وقبول الآخر وهو ما ركز عليه التصوف وعمل من خلاله لقبول جميع البشر واحترام مشاربهم، فهم يعتقدون أن كل إنسان له عروج إلى الله حسب طبيعته وحسب استعداداته الجسدية والروحية ويحترمون كثيراً خصوصية الإنسان مهما كان وبالتالي هذا ما جعل المتصوفة ذوي انفتاح متناهي على جميع الناس بمختلف مشاربهم[٢].

وتوطيد قيمة التسامح في افريقيا من قبل الصوفية اسفر عن انتشار الإسلام وتقبل السكان لها ولرجالها، والذين بدورهم وضعوا حد لدعاة التنصير، فقد وقفت الطرق الصوفية في غرب افريقيا بوجه التكالب الاوربي على مناطق غرب افريقيا، واصبحت جهود زعماء المسلمين الصوفيين منقسمة الى قسمين الاول جهاد القبائل الوثنية، والثاني جهاد الاوربيين، الأمر الذي اعطى جهاد المسلمين صفة محاربة الحملات الصليبية والوقوف بوجهها وتكبيد العدو خسائر فادحة، ويدين شعوب غرب افريقيا الى الحركات الإصلاحية الصوفية في حمايتهم وتحولهم الى الاسلام وتسامحها معهم في الكثير من المسائل[٣].

لقد وجد التصوف كفكر مع وجود الإنسان على الأرض وهو سابق حتى لوجود الأديان، وحينما ظهر الإسلام كان التصوف جوهره وحقيقته، لذا يُعد التصوف

---

(١) سورة الحجرات، أية (١٣).

(٢) المعتز بالله أبو محمد رضا أحمد صمدي، القواعد الحسان في أسرار الطاعة والاستعداد لرمضان، (جدة: مكتبة الفهيدة، ١٤٢٠ه)، ص١١ .

(٣) محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريدية، المسلمون في غرب افريقيا تاريخ وحضارة (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧)، ص٤٢ .

من أهم المدارس الإسلامية وأكثرها اهتماماً بالإنسان وهو يرى أن الإنسان نفحة الله في هذه الحياة وهو مظهر تجليات الحق بصوره وأسراره، ومن هنا ترى الصوفية أن على الإنسان السير إلى الله من خلال استكشاف تلك الأنوار وتلك الأسرار والتفاعل مع تلك الصور والصفات الربانية التي تحلو بها الحياة وتطيب بها القلوب وتتزكى بها النفوس.

وكدليل على تسامح الصوفية في افريقيا هو ماحصل من انتشار للإسلام في غرب افريقيا على يد رجال التصوف وفق الطريقة القادرية، فحال وصولهم إلى مدينة تمبكتو فتحوا مدارس لتعليم الاطفال وتحفيظهم القرآن الكريم، مبدين اقصى حالات التسامح عبر قبولهم بحضور ابناء الوثنيين الى تلك المدارس، ومستخدمين اسلوب الإرشاد السلمي للوثنيين عبر دعوتهم للدخول في الإسلام وترك العادات الوثنية[١].

لقد انتشر المريدون في مناطق واسعة من السودان الغربي من السنغال وحتى مصب نهر النيجر، وظهرت المراكز الرئيسة للدعوة في الفوتاجالون وفي اماكن سكن الماندنجو، وتلك المراكز كانت تؤلف مراكز النفوذ الإسلامي وسط شعب وثني رحب بالقادرية باعتبارهم فقهاء ومعلمين وكُتاب تمائم، وسرعان ماتحول الدخول في الإسلام من حالات فردية إلى جماعية، ومن يدخل في الإسلام من وثنيي تلك المناطق يرسل الى معاهد الطريقة للتعلم، أو ان يرسل الى معاهد القيروان أو طرابلس أو فاس او الازهر ليقضوا في تلك البلدان عدة سنوات حتى يتقنوا دراستهم ويعودوا الى بلدانهم[٢].

ونتيجة لتربية المسلمين المتبعين للطريقة القادرية على قيمة التسامح التي اكدت على حب الجار، فقد عمل اولئك على تأسيس المدارس في بلاد السودان والإنفاق عليها، ونشاط الطريقة القادرية في الدعوة يقوم على الإرشاد المرتكز على التسامح، وان يكون

(١) نعيم قداح، حضارة الإسلام وحضارة اوربا في افريقيا الغربية (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٥)، ص٩١ .

(٢) عبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في شرق افريقيا، ص١١١ ؛ عبد الله سالم بازينة، انتشار الاسلام في افريقيا جنوب الصحراء (ليبيا: منشورات جامعة ٧ اكتوبر، ٢٠٠٩)، ص٢٠٥ .

الواحد منهم قدوة لغيره، وبهذه الطريقة برهن دعاة القادرية انهم اوفياء لمؤسس الجماعة الذي اوصى تلاميذه بهذا السلوك السمح[١].

ومن اشهر قادة القادرية في افريقيا سيدي احمد البكاي في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي وعمل على نشر الدعوة في الجزء الغربي من الصحراء الافريقية، وقد عُرفت طريقته بالطريقة البكائية، كما تبنى الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي نشر الطريقة القادرية في بلاد الهوسا في السودان الاوسط[٢].

وحينما ظهرت السنوسية في افريقيا جنوب الصحراء نمت مسألة التسامح مع الرقيق، وظهر ذلك التسامح جلياً في محاربة العادات السيئة وفي مقدمتها الرق، إذ يُقدم الشيخ السنوسي على شراء الرقيق الزنوج ويعلمهم في زاويته القرآن الكريم وتعاليم الإسلام واللغة العربية، وقد نتج عن ذلك التسامح ان انتشر الإسلام والطريقة السنوسية في واداي في تشاد بشكل سريع[٣].

لقد حظيت الطريقة السنوسية بانتشار واسع لما عُرفت به من بساطة المبادئ والتعاليم وتسامحها مع الطرق الصوفية الأخرى على عكس الطريقة القادرية التي لاتسمح لمريديها ان يتبعوا مبادئ الطرق الأخرى[٤]، فضلًا عن ذلك فإن لتسامح الصوفية دور كبير في ظهور مبادئ إسلامية عظيمة في المجتمع ولاسيما بين طلبة العلم كالتربية واتخاذ القدوة الحسنة والرغبة في التعليم، كما استوجبت قيمة التسامح على الشيخ الصوفي ان يكون ملجأ للفقراء والمساكين عبر ايوائهم ورعاية مصالحهم، وعمل المتصوفة في افريقيا ارتكز على محورين الاول يتمثل في التدريس والتربية الروحية،

(١) توماس ارنولد، الدعوة الى الاسلام (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠)، ص٣٦٥-٣٦٦؛ بازينة، انتشار الاسلام، ص٢٠٥ .

(٢) بازينة، انتشار الاسلام، ص٢٠٦ .

(٣) عمار هلال، العلماء الجزائريون في البلدان العربية الاسلامية (الجزائر: ١٩٩٩) ،ص٥٦ .

(٤) عبد العزيز الهادي، الطرق الصوفية ودورها في نشر الإسلام في افريقيا جنوب الصحراء، مجلة افاق فكرية، العدد الاول، ٢٠١٤، ص١٢٨ .

والثاني الاهتمام بمصالح العامة الدنيوية[١].

من هنا كانت المعرفة شرطاً أول للتسامح، المعرفة الحقة بالذات، بالتاريخ، بالهوية، بالشخصية التاريخية ترفدها معرفة مكملة بالآخر تاريخاً وثقافة وحساسية وحضوراً راهناً، والتسامح ليس خياراً بين خيارات، يمكن أن تستقيم الأحوال السياسية والدينية والحضارية في العالم بوجوده أو انتفاءه، ليس احتمالاً بين احتمالات بل هو الخيار الإلزامي المعبر الضروري إذا شاءت البشرية أن تنمو وتزدهر، أنه القيمة التي تجعل الحياة ممكنة في الأساس، وقدرة على أن تهزم الحروب والدمار، ففي غياب التسامح لا ثقافة للسلام[٢].

ولكي تحقق الصوفية التسامح ركزت على الأخوة واهتمت بها، ويقول الصوفية (أن الأخوين في الله عز وجل إذا كان أحدهما أعلى مقاماً من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه، وأنه يلحق به كما تلحق الذرية بالأبوين والأهل بعضهم ببعض لأن الأخوة عمل كالولادة)[٣]، فالذي يرعى صديقه لا يقل جهداً عن الذي يرعى ولده، وله من رعاية الصداقة في الآخرة أجر يساوي أجره في رعاية الأهل والأطفال[٤]، وقد راسهمت الصوفية في تربية الاطفال تربية جيدة تحميهم من الانزلاقات والانحرافات، واسهمت في نشر الاخلاق الحميدة المستمدة من مناهج الاسلام وتعاليمه السمحة، كما كانت لها اهداف نبيلة اكسبتها بعداً اجتماعياً تضامنياً وإنسانياً، فقد جمعت فئات المجتمع المختلفة ووحدت بينها، وبثت فيها روح التعاون والتسامح[٥].

وربما يكون ماحصل قبل إسلام ملك غانة دليل واضح على وجود جذور

(١) محمد محجوب مالك، رواد الثقافة الاسلامية في جزيرة الفونج، (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٤).

(٢) نجم الدين كبرى، فوائح الجمال وفواتح الجلال (القاهرة: دار سعاد الصباح، ١٩٩٣م)، ص٩٥.

(٣) محمد بن علي بن عطية الحارثي أبو طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المُريد إلى مقام التوحيد، ج٤ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥م)، ص١١٦ .

(٤) مبارك، التصوف الإسلامي، ص١٧٧ .

(٥) زهرة مسعودي، الطرق الصوفية بتوات وعلاقتها بغرب افريقيا، رسالة ماجستير غير منشورة، الجزائر، ٢٠١٠م، ص٥٧ .

التسامح في افريقيا منذ القرون الهجرية الاولى، فقد اسهمت قيمة التسامح في تقبل الافارقة للاسلام حتى قبل دخول الحاكم في ذلك الدين، وهو ماحصل في دولة غانة ولاسيما عاصمتها كومبي صالح، فكان في قسمها الذي تعيش فيها الرعية إثنا عشر مسجداً ومسجد جامع، كما كان هناك مسجد جامع في مدينة الملك للوافدين عليه من المسلمين[١]

وما أحوجنا اليوم للتطلع إلى ذلك المبدأ الصوفي القائم على الأخوة والترابط الذي سيقود حتماً إلى غض النظر عن أخطاء الآخرين والتسامح معهم ومعاونتهم في قضاء حوائجهم، فالصديق أمين، والأمين من خشي الله تعالى، فعليك الابتعاد عن الفاجر لكي لا تتعلم فجوره، وأن تقترب وتصادق من إذا خدمته صانك، وأن مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن رأى منك سيئة سدها، وإن سألته أعطاك، وإن سكت ابتدأك، وإن نزلت بك نازلة واساك، وإن قلت صدق قولك، وإن تنازعتما آثرك، وصديقك من يسد خللك، ويستر زللك، ويقبل عللك[٢].

فضلاً عن ذلك فأن للتسامح دور كبير في الدعوة للدين الإسلامي فبالتسامح واللين استطاع الرسول الكريم ﷺ من دعوة الناس للإسلام فقبلوا به مقتنعين، وبفضل التسامح انتشر الإسلام في بقاع بعيدة عن مركز الخلافة الإسلامية كبلاد المغرب والأندلس وأفريقيا وجنوب شرق أسيا، كما أن قناعة المتصوفة بالتسامح وتعاملهم باللين مع غير المسلمين دفع الكثير من أولئك الناس للدخول في الإسلام، ويذكر الشعراني أن الكثير من الكفار دخل الإسلام بفضل دعوته المبنية على الرفق واللين والتسامح[٣].

---

(١) البكري، المغرب، ص١٧١ .

(٢) قوت القلوب، ج٤، ص١١٨ .

(٣) الشعراني، لواقح الأنوار، ص٧٦ .

النتائج والتوصيات:

١- تضمين المناهج الدراسية في المدارس والجامعات المبادئ الأساسية للتصوف والتي تؤكد على التسامح والرفق مع الآخرين وقبول أخطاءهم والمسامحة معهم ما دامت تلك الأخطاء لا تتعارض مع الشرع الإسلامي .

دعوة الشباب المسلم إلى قراءة التاريخ الإسلامي والتمعن به وأخذ العبر من سيرة أولئك الرجال الأوائل لتكون وسيلة لحل كل ما يعترض طريقهم وحياتهم.

المصادر والمراجع :

أولاً: المصادر :

١- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، الجامع المُسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ

٢- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني أبو بكر، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م .

٣- الحميري، أبو بكر عبد الرزاق بن هُمام بن نافع الحميري، المُصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت،١٤٠٣هـ .

٤- أبن حنبل، أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شُعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٩ .

٥- الدمشقي، أبو القاسم تمام بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله، الفوائد، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٢هـ .

٦- السهروردي، شهاب الدين، عوارف المعارف، تحقيق: عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، د/ ت .

٧- الشعراني، عبد الوهاب بن احمد بن علي الحنفي، الطبقات (لواقح الأنوار في طبقات الأخيار)، مكتبة محمد المليجي، القاهرة، ١٣١٥هـ .

٨- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي، مكاشفة القلوب، تحقيق: أحمد حجازي السقا، بيروت، د/ ت .

٩- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، د/ ت .

١٠- الفاريابي، تهذيب خالصة الحقائق، إعتناء: محمد خير رمضان، بيروت، ٢٠٠٠.

١١- القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود و محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ١٢٨٧هـ .

١٢- كبرى، نجم الدين، فوائح الجمال وفواتح الجلال، تحقيق: يوسف زيدان،

دار سعاد الصباح، القاهرة، ١٩٩٣م .

١٣- المكي، محمد بن علي بن عطية الحارثي أبو طالب، قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المُريد إلى مقام التوحيد، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م .

١٤- أبو نعيم الاصبهاني، محمد بن صالح بن محمد، حلية الأولياء وطبقات الاصفياء، دار السعادة، (مصر: ١٩٧٤م).

ثانياً: المراجع

١- جاسم، عزيز السيد، متصوفة بغداد، شركة المعرفة للنشر والتوزيع، بغداد، ١٩٩٠ .

٢- الجلعود، محماس بن عبد الله بن محمد، الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، دار اليقين للنشر والتوزيع، ١٩٨٧ .

٣- شلبي، رؤوف، الدعوة الإسلامية في عهدها المكي مناهجها وغاياتها، دار القلم، ط٣ .

٤- صمدي، المعتز بالله أبو محمد رضا أحمد، القواعد الحسان في أسرار الطاعة والاستعداد لرمضان، تقديم: الشيخ أبو إسحق الحويني والشيخ محمد حسين يعقوب، مكتبة الفهيدة، جدة، ١٤٢٠ .

٥- العثيمين، محمد بن صالح بن محمد، الشرح الممتع على زاد المستقنع، دار أبن الجوزي، بيروت، ١٤٢٨هـ .

٦- مالك، محمد محجوب، رواد الثقافة الإسلامية في جزيرة الفونج، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٤

٧- مبارك، زكي، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٣٧ .

٨- النابلسي، عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني الدمشقي، العقود اللؤلؤية في بيان طريق السادة المولوية، دار الكتب العلمية، (بيروت: ٢٠١٤) .

ثالثاً: الدوريات والمواقع الالكترونية :

١- أبن احمد، محمد، الحب الصوفي وانتروبولوجية التسامح دراسة ابستومولجية، مجلة انتروبولوجيا الاديان، العدد التاسع .

٢- بكر فلاته، عمر بن محمد بن محمد،

ترجمة الشيخ عبد الرحمن الأفريقي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد الأول، الجامعة الاسلامية، ١٣٩٨هـ .

٣- حمزة، رستناوي، نظرية الحب والاتحاد في التصوف الاسلامي، مجلة الحوار المتمدن، العدد ١٣٠٨، سبتمبر ٢٠٠٥ .

٤- شمسان، محمد، التصوف عنوان التسامح، منشور على موقع (الوحدوي نت)، وهي في الأصل ورقة عمل قُدمت إلى ندوة ثقافة وسؤال التسامح في مركز البحوث والدراسات بصنعاء في ٢٠٠٩/١٠/٢٨

ابن عبد الرحمن، المرابط، التربية ومكانتها عند الصوفية، منشور على موقع الطريقة العلية القادرية .